الفصل الحادي عشر

اللجوء إلى...

أحياناً كثيرة، يتحايل المرء على اللحظات حتى يستطيع العيش، يدعي الصمود وكأن مآسي من حوله لن تؤثر فيه؛ بل أنه سيكون لهم (الحائط) الذي يستطيعون الاستناد عليه للوقوف مجدداً عندما تتداعى بنيان صمودهم، و(اليد) التي ستنتشلهم من سيول الأحزان، وتمنعهم من الانجراف إلى وديان الآلام.

وأحياناً أخرى، يجد أن تحايله لم يكن إلا (كذبة) خلقها ليهد دواخله، فيصبح بنيانه هشاً في لحظة فاصلة، ليفتش عن حائط يستطيع الاستناد عليه بدوره، ويد تنقذه من الوقوع في غياهب النسيان.

عند الساعة العاشرة من تلك الليلة، دخل شادي المجمع الصحي بمدينته، وهو يحمل ضياء بين ذراعيه وجسده يرتجف وأعماقه تضطرب، يخاف أن يفقدها في أية لحظة، كانت كالجثة لا يتحرك من جسدها شيء، أنفاسها البطيئة والمتباعدة وحدها دليله على أنها لا تزال حية، وأمه تتبعه وجسدها لا يكاد يحملها من فرط خوفها هي الأخرى، هرع بعض الممرضين في استقباله وأحضروا سريراً متحركاً حيث مدد جسدها عليه، ثم نقلوها إلى ردهة الطوارئ، أسرع طبيب في فحصها، بينما قام ممرضين آخرين بوضع محاليل الوردية لها وقياس العلامات الحيوية، دقائق قليلة، ودون الطبيب بعدها بعض الأدوية في ورقة، والتفت إلى شادي وهو يقول:

-سنقوم بإدخالها إلى قسم العمليات الصغرى لمعالجة الحروق، أحضر ما دونته، وكذلك بعض الملابس.

سأله في لهفة وتوتر:

-هل ستكون بخير يا سيدي؟ هل ستنجو؟

أجابه في قلق:

-لا أخفي عليك، حروق متفاوتة بين الدرجة الثانية والثالثة وبمساحة تصل تقريبا إلى ثلاثين في المئة، الإصابة شديدة والملابس قد علقت بها، سأقوم بكل ما في وسعي لأجلها، وعليك لاحقاً أخذها إلى مستشفى أكبر من مجمعنا هذا.

-حاضر.

خرج في اللحظة التي أمر الطبيب الممرضين بنقلها إلى غرفة العمليات، ولحقت بهم مها لتجلس على مقعد انتظار ثلاثي قرب بابها وتنتظر، ودعواتها تتدافع من لسانها، والخوف يقطع كل ذرة من قلبها.

ثم عاد وهو يحمل ما طُلب منه وسلمه للممرضين عند طرف الباب، وألقى بجسده على الكرسي إلى جوار أمه، حتى إذا ما استقر جسده لفت أنظارهما أناس آخرون يدخلون ومعهم عدد من المصابين، بين حروق وكسور وإصابات بشظايا الانفجار، صار المجمع خلال ربع ساعة مكتظاً بالمصابين، وأصوات الانفجارات تتعالى بين الفينة والأخرى، تمتمت في حزن وغضب وهي تحاول أن تغالب دموعها:

-رحمتك يا إلهي، ما بهم هؤلاء المجانين؟ ألا يخافون ربهم؟ ألا يدركون بأنهم ...

قطعت كلمتها حين انتبهت لجسد شادي يرتعش بعنف كأنما أصابه البرد، نظرت إليه، فوجدته قد مال بجسده للأمام ووضع مرفقه الأيمن على فخذه، وأسند جبهته براحة يده اليمنى، ودموعه تتساقط من عينيه على فوطته، لم يخجل ولم يمنع نفسه عن البكاء، ربتت على كتفه وهي تقول:

-ادعو لها بدلاً من البكاء يا ولدي، كن ثابتاً لأجلها.

لم يلتفت إليها أو يجبها، ظل كحجر أصم لا يتحرك منه شيء إلا مطر دموعه، ازداد قلقها، فقالت:

-شادي، ما بك؟ ألا تسمعني؟

بالفعل لم يكن يستمع إليها؛ بل لم يكن يشعر بشيء مما حوله، كان في عالمٍ آخر.

-ماذا لو أني صممتُ أذني عن آذان المقاومة ولم ألبيه، ورحلت بهما؟ كنتُ سأحميها... ماذا لو أني بقيت في الجبهة؟ كنت سأزيد عددهم وسأدحرهم معهم وسأمنعهم من إيذائها؟... ليت أمي امتثلت لطلبي ورحلتا معاً ما كان هذا ليحدث، هل سأكون سبباً في موت أختي بسبب بقائي في عدن أم بسبب هروبي؟... لا، أنا لم أهرب، لقد انسحبت لأنقذ أمي وأختي، لا أحد لهما غيري، لم يكن لينقذهما سواي، أكنت ستحميهما لو قُتلتُ يا رضوان؟... لكني... خذلتكم، أرجوكم سامحوني، فالأمر لم يكن بيدي، كنتُ مجبراً، القتال على الأرض شرسٌ جداً جداً، أكثر مما كنتُ أتخيل.

لم تنتشله من العالم الذي غرق فيه إلا بعد أن أمسكت يده بقوة وهزتها وهي تقول وقد انهمر مطر دموعها:

-ولدي، تماسك أرجوك.

رفع رأسه بتثاقل ثم نظر إليها، أدرك بأن عدوى الألم بقلبه قد وصلها فأوجعها، حاول أن يهون عليها لكن الكلمات خذلته، فاقد الشيء لا يعطيه، كيف يمكنه أن يهون عنها وهو عاجز عن التهوين عن نفسه، تحركت شفتاه إلا أنهما ارتجفتا دون أن تستطيعا النطق بحرف مع كل عواصف الألم والندم والخذلان التي اضطربت بين جنبات صدره، ثم عاد لوضعه السابق ودموعه لا تزال تعاود الانهمار، لن يوقفها إلا نجاة ضياء مما أصابها، لم تستطع مها التهوين عليه أو عن نفسها ووقعت أسيرة الألم والحزن مثله.

وبعد ساعة انتبها لفتح باب غرفة العمليات، وهبا من مكانهما حين شاهدا ممرضين ينقلانها على سرير متحرك إلى قسم الترقيد المتواضع بالمجمع، ورافقاهما، ظلا يتأملان وجهها منذ لحظة مغادرتها، وتحركا معها بآلية، والحزن ينهش قلبيهما عليها، اختفى نصف وجهها خلف الضمادة الكبيرة موضوعة برفق على الإصابة كغطاء خفيف، وحين وصلوا الغرفة وتم وضعها السرير، أزال الطبيب الضمادة ليتفقد الإصابة تحتها، فاقشعر بدنهما.

لقد محيت معالم وجهها، اختفت البشرة البيضاء والملامح الجميلة، صار بيئتين مختلفتين لا تنتميان لبعض تجمعهما بقعة واحدة، لقد تجسدت أمامهما كل قسوة الحرب في وجهها، بكت مها، أما شادي فغالب دمعه، أكان ما حدث لها عقاب له على هروبه من الجبهة؟

لم يحتمل الانتظار، وسأل الطبيب في لهفة:

-كيف حالها الآن؟

أعاد الضمادة مكانها وهو يجيبه:

-الحمد لله حالتها مستقرة الآن، وعندما اطمئن على إصابتها ويكون في مقدورها المغادرة في وسعك نقلها لمستشفى أكبر.

تلعثم وهو يقول:

-هل... وهل في الإمكان محو هذه الإصابة عن وجهها؟

-إذا ما تم هذا بسرعة ففي وسعك ذلك، جد لها مجالا للسفر للخارج فنسبة النجاح ستكون كبيرة، أما هنا وفي ظل الحرب، لا أدري، المستلزمات الطبية تتراجع في ظل هذه الأزمة، نسأل الله ألا تنعدم، لذا ابذل جهدك لتسافر بها، أما إذا تأخرت فلن تستطيع إزالة الندبة أبداً.

هز رأسه وغمغم وهو يفكر حين غادره:

من سيساعده في ذلك وفي هذه الظروف؟ كل أقاربه رحلوا من المحافظة، وأصدقاؤه في المقاومة، والناس ستكون في حاجة حتى لفلس واحد لتؤمن معيشتها، هنا أو خارج المحافظة، الناس كلهم في ظروف صعبة وعملية تجميل تعد شيئا كمالياً في هكذا ظرف، جلس قربها وقلبه مثخن باليأس والأسى عليها وعلى محل بها بسببه.

حين أسدل الليل أستاره انتبها بأنها تتحرك وتتأوه، تكاد تستيقظ، شاهداها تفتح عينها اليمنى، قالت لها وهي تدنو منها أكثر:

-ضياء حبيبتي، هل تسمعيني؟

أول شيء وقعت عينها عليه كان مصباح الإضاءة بالغرفة والمعلق عن يمين الغرفة، وهجه كان ساطعا ثم سمعت صوت انفجار، تحولت نظراتها إلى الفزع، اتضح لهما من تباعد جفني عينها اليمنى صرخت وهي تهب من سريرها فسقط الضمادة المرتخية على وجهها، ظهرت انبلاجة طفيفة لعينها اليسرى كانت عاجزة عن فتحها تماماً، لقد أعاق الحرق عضلات جفنيها، وهي تقول باكية:

-شادي، أمي، أهربا... القذيفة قادمة نحونا... إنها تلتمع هناك.

أسرعت مها لتحتضنها، جفلت وهي تقول محذرة:

-أمي، ألا تسمعين ما أقول؟ دعيني، لنهرب لنهرب.

كانت تتحرك بعنف رغم إصاباتها، لم تكن تشعر بألم ولم تدرك بعد أين هي، نوبة فزع تملكت كل فكرها، فقالت مها وهي تبكي:

-نحن في أمان يا ضياء، لا تخافي.

-ألم تشاهديها يا أمي؟ إنها هناك.

أطفأ شادي المصباح، واستخدم مصباح هاتفه ونظر معتذرا للمريضات المتواجدات بالغرفة مع ذويهن، واقترب منها وهو يقول:

-اهدئي يا ضياء.

انتبهت لكل ما حولها، انتبهت من كابوس خيال ولَّده حقائق الواقع، أحست بألم جراحها المخفية بضماد على طول ذراعها اليسرى، وتحت ثوبها، ارتمت في حضنها وأجهشت ببكاء مرير، ألقت عن قلبها كل نوبات الفزع حين تطمأن لكن الاطمئنان لم يكن متاحاً مع سلسلة القذائف التي توالت وكأن العدو يعلن عن بدء طقوس فرحه، كاد شادي أن يبكي لحالها، قاوم بشدة وهو يعيد تشغيل مصباح الإنارة ثم يقترب من أخته ويمسح على رأسها بصمت كأنما يقول:

-آسف لما سببته لك.

ثلاثة انفجارات بالبيوت الآمنة خلفت مئات القتلى و الجرحى لتكتظ المرافق الصحية بالمدينة بهم، تقرر ترقيدها لبضعة أيام ، خلالها لم تسلم قلوب من هم بالمجمع ولا أسماعهم من دوي الانفجارات، يوماً تلو الآخر، خائفين أن يصبح المجمع هدف لقذيفة أحدها.

لم يكن في تلك السنة أي ربيع على الإطلاق ولا حتى شعور باقترابه؛ بل خريف تساقطت فيه الأرواح البريئة بزوابع الأطماع وعواصف السلطة.

مضى أسبوع على رقودها، والخوف من تلك المقطوعات التي عزفتها قوى الشر ترعبها، ودعوات الناس الملهوفة والمتألمة حولها تزيدها حزناً، وآلام إصاباتها بتلك النيران قد ملأت جسدها وأثقلته.

لقد اجتمع مزيج الخوف والألم، أنهكا كل رغبة لها في الحياة، تمنت لو أنها ماتت قبل أن ترى الألم هكذا فيها وحولها؛ لكن وجود أخيها وأمها أمامها بخير يؤنس قلبها ويخفف شيئاً من حزنها، ومها تحاول جاهدة أن تمنع فيض دموعها عن الانهيار أمامها لما أصابها، فقالت لهما في ذلك اليوم:

-أمي، شادي، دعونا نرحل قبل أن تزداد الأوضاع سوء.

رد عليها بحزم:

-لا يمكنكِ السفر وأنتِ...

قاطعته وهي تقول بعيون دامعة:

-أرجوك أخي... لا أحتمل رؤية أحدكما وقد...

فقاطعتها وهي تقول:

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، حالما يسمح لك بالمغادرة سنرحل يا ضياء لا تقلقي، سنفعل ذلك.

بكت ضياء في خوف وهي تقول:

-ونعم بالله، ونعم بالله.

خرج بعدها من الغرفة وهو حزين لحال كل شيء، لحال أخته، لحال مدينته، لأصحابه الذين تركهم خلفه، كانت روحه سجينة الألم تقبع في زاوية من زوايا صدره.

بعد أيام من سجن للروح والجسد إجباراً خلف قضبان الألم والخوف، سمح لها الطبيب بالمغادرة وأوصى شادي بأن يأخذها لمستشفى أكبر، أيده، ثم أسرع بعائلته ليخرج بهم من المدينة، لترى بعين دامعة كيف تحولت بيوتها إلى خراب، وجثث الضحايا تملأ الطرقات، أطفال ونساء ورجال، لم يشفع لهم شيء عن القتل على أيدي الغزاة، وابل النيران لا يهدأ ضجيجه أبداً فلم يستطع الأحياء فعل شيء لهم، فمن انتظر أو التفت لينتشلهم لقي حتفه ليكون إلى جانبهم.

أي خريف هذا ظهر في ربيع أبريل؟

بكت مها وهي تحتسبهم عند ربهم شهداء و لسانها لا يفتر عن التضرع لربها.

أما شادي فقد انطلق بسيارته بأقصى ما يستطيع مبتلعاً حزنه وألمه لما يرى حوله.

رحلت ضياء من مدينتها الحبيبة بعد أن تركت الحرب بصمة الألم بقلبها وجسدها، انهمرت دموعها بصمت، وهي تقول في نفسها:

- سيعود ثغرك باسماً، سيعود رغم الأحزان، سيعود يا عدن.

منذ أن أطبق الحصار على الأرض، لم يسلم الماكثون ولا حتى النازحون من وابل النيران، تتجه مواكبهم نحو المجهول باحثين فقط عن الأمان، من وصل إلى مكان أعتقد بأنه آمن يفاجئ بزوابع الموت تجري وراءه حاثة إياه على الهرب.

لكن ... إلى أين؟

منذ خروجهم من المجمع، طاف شادي بسيارته باحثاً عن منفذ بري يقودهم خارج المحافظة، الطريق عبر الدكة لا شك في أنها مغلقة بالقتال الذي تم قبيل هروبه، اتجه صوب العقبة فوجد عدداً من السيارات تسبقه وتغلق الطريق أمامه، خرج من السيارة ليرى ما يمنعهم، فوقعت عيناه على مدرعات المتمردين واقفة في استقبالهم، ثم أطلقوا رصاصات متتالية في الهواء كإشارة تحذيرية للنازحين من التقدم، وبعضهم يشهر بنادقه في وجوههم، دب الرعب في النساء والأطفال، وقفل أهاليهم عائدين بهم إلى وسط نيران مدينتهم، عض على شفته السفلى بغضب وضيق، وعاد لمقعده خلف مقود القيادة، وقفل عائداً مثل البقية، لم يكن يدري إلى أين يجب أن يتجه، كان يخشى إن ذهب إلى التواهي أن يزداد الحصار ولا يتمكن من الخروج أبداً ما لم يستبسل الآن فيه، المجال عبر البحر غير متاح أيضاً بعد سقوط الميناء، استراح مع أهله لأقل من ساعة في السيارة ليواصل رحلة النزوح المضنية، أكثر ما يقلقه هو صحة ضياء، قضوا معظم اليوم بالعراء وبين تجمعات من نزح من مدينتهم، ثم أعاد المحاولة مع عدد آخر من النازحين على أمل الخروج عبر العقبة فاستقبلوهم بالقذائف هذه المرة؛ بل أطلقوا نحو سيارات البعض كتهديد شرس، زاد الرعب في الناس وعادوا مجددا للمدينة، لم تنجح كل محاولاتهم، والطلقات وسط الأحياء لم تكن تمنحهم أي اطمئنان، إنهم هدف حر لأي قناص متعطش لسقوط الأحياء أمامه مستمتع بمهمته في صيد ضحاياه، أو ربما يكونون هدفاً لقذيفة طائشة لا تقصد إلا التدمير وحسب، هل سيتمكن من المغادرة هكذا؟

ومع اقتراب رحيل شمس اليوم، انتبه إلى أنه يتجه إلى الشارع الشهيد مدرم، لم يكن يرغب في العودة إليه حتى لا ترى ضياء كيف تحول منزلهم إلى كومة حطام، وأن كل ذكرياتها على الأرض قد دفنت تحت أنقاضه وقتلت، لم يكن يرغب في أن يزيد وجعها أكثر مما هي فيه، انعطف وأوقف سيارته في شارع الصعيدي الذي لم تسلم المنازل والعمائر حوله من الهجمات المجنونة وتركت آثارها بمبانيها، السكينة تعم المكان مؤقتاً، أحس بتعب شديد، فأسند رأسه إلى عجلة القيادة ملتمساً لبعض الراحة، لم يشعر بها منذ أن أصيبت، سقطت أجفانه سريعاً في إعياء ونام، ولم يستيقظ من غفوته تلك إلا على صوت مها، وهي تسأله في قلق:

-بني، هل أنت بخير؟

التفت لها وقال :

-نعم، أنا بخير، كيف حال ضياء؟

نظر إليها، عينها اليمنى مغلقة وكأنها تأخذ غفوة وهي تستلقي بالمقاعد خلفه على جنبها الأيمن ورأسها بحجر أمها، مخفية كل إصاباتها بثوبها وعباءتها وحجابها، أما إصابة وجهها لم يظهر منها إلا الضماد الذي أسدل عليها، شعرا بأن رحلة النزوح رغم أنها في بدايتها قد أنهكتها وملامحها بدا عليها الإعياء، النهار قد مضى دون فائدة، ردت عليه في قلق:

- حرارتها قد ارتفعت قليلا، إنها لا تأكل إلا اليسير منذ أن انطلقنا، إني خائفة عليها يا شادي، دعنا نتجه لفندق قريب أو ...اتجه لمنفذ آخر.

قال في ضيق:

-إلى أين؟ ما من مخرج إلا إلى التواهي، أريد مكاناً أكثر أمانا، لقد سجنونا في قلب مدينتنا بأسلحتهم هذه.

-اتجه إلى الدكة.

-إنها مغلقة أيضا.

-ما الحل إذن؟

تنهد بعمق ثم قال بعد لحظة صمت:

- لا خيار آخر، سأتجه إلى التواهي، الآن سأشتري لها شيئا عله يساعدها على استعادة عافيتها، آمل أن يفتح منفذ ونتمكن من المغادرة، تنقلنا هكذا سيزيد حالتها سوءاً.

أبصر أمامه على مسافة بقالة توارت نافذتها بأعداد الناس الكثيرة أمامها، أسرع ينزل إليها، وحين أغلق باب السيارة، استيقظت ضياء واعتدلت جالسة لتراه يبتعد، فسألتها مها:

-كيف تشعرين يا ابنتي؟

رفعت الضماد عن وجهها لتبان إصابتها المنتشرة، بدت محمرة ورطبة في بعض نواحيها، وهي تقول:

-أنا بخير، إلى أين يذهب شادي؟

-سيشتري من البقالة شيئاً ويعود إلينا.

نظرت الاثنتان إلى تجمع الناس، لا شك في أن هذه الفرصة لم تسنح لهم بسبب الهجمات الوحشية التي لا تميز بين الجمادات والأحياء، فالكل – في نظرهم- يستحق أن يدمر، هكذا فكرتا وهما تريانه ينضم للجموع.

ولزحمة الناس، طال انتظارهم، مضت قرابة ساعة حتى سُمعت فجأة أصوات رصاص قريب، ارتعب الجميع وأسرعوا بالابتعاد عن المكان، تدافعوا هاربين، كاد يهرب معهم حين رأى فتى في نحو العاشرة وقد ألصق ظهره بجدار البقالة والخوف بادٍ على وجهه، ولما أن رأى هرب الناس من نافذتها اقترب من صاحبها ليطلب خبزا في لهفة، فقال له شادي في توتر:

- ماذا تفعل؟ هجمات الأعداء قادمة.

- لا أريد أن أعود للبيت صفر اليدين، أهلي بحاجة له، لم نأكل شيئا إلا اليسير منذ أيام.

تبلل وجه الفتى بالدموع، لعل هذه هي دموع إخوته الجائعين الذين ينتظرون عودته بلهفة، أو ربما دموع شادي الذي حبسها حين علم بحالته، فانهمرت على وجهه، أسرع البائع يلبي طلبه فهو أيضاً سيغلق محله، بينما وقف شادي دون أن يطلب شيئاً كأنما يقول في حزم وغضب للغزاة:

-سأحميك حتى تحقق غايتك.

بعد ثوانٍ، هزت أصوات انفجارات مدوية المكان هزاً، ليتفاجأ الجميع بقذيفة مدفعية تدوي في الشارع وسط جمع الناس الذين كانوا متجمهرين أمام البقالة، تطايروا كذرات الدخان المتصاعدة من انفجارها، ومن بينهم شادي والفتى.

ذعرت ضياء ومها لذلك، صاحتا بهلع وبصوت واحد:

-شـــــادي!!

أسرعت مها لتنزل من السيارة وتجري حيث تصاعد الدخان واشتعلت النيران تلتهم كل شيء، لم تستطع أن تلمحه من مكانها فنزلت تتفقده، وهي تبكي في خوف.

أما ضياء التي أنهكتها إصابتها ورحلتها فلم تستطع حتى الوقوف لوحدها، استندت بباب السيارة والخوف والرعب يملأن قلبها على أخيها، والدموع تسيل من عينيها، كان من الممكن أن تقل معاناتهم هذه لولا إصابتها فلامت نفسها وهي تراقب أمها التي أخذت تعدو بجنون مقتحمة الدخان الذي غطى مشهد الانفجار.

حين اقتربت، وجدت أجساد الناس المتناثرة هنا وهناك.. الصغير والكبير.. الأحياء منهم المتخبطين في دماء إصاباتهم، وصرخات آلامهم تشق عنان السماء يستنجدون بمن ولهم، والأموات غرقى في أبحر دمائهم، منهم من ظل جسده كامل، ومنهم من تبعثر إلى أشلاء مبعثرة فلم يرَ أثر إلا بقاياهم، ارتجفت للمنظر، ظلت تبحث ببصرها عنه وقتامة الواقع تجذب خيالها إلى أظلم نقطة في قاعه، تخيلته وقد تمزق وتبعثر جسده فلم تستطع إيجاده، جن جنونها للخاطر المرعب، أخذت تنادي عليه بقلب مكلوم، بحثت طويلا حتى أبصرته، لمحته

منبطحاً على الأرض وبحيرة دماء تتدفق تحته، ارتجف جسدها بعنف، شعرت بأن ساقيها ستسقطانها في أية لحظة، ارتجفت شفتها وهي تقول بصوت متحشرج:

-بني... بني.

اقتربت بوهن منه، خيالها المظلم جعلها توقن بأنه قد أصيب إصابة بالغة وفارق الحياة، جلست قربه وهزته باكية؛ لكن الذهول أصابها حين استيقظ من غيبوبته متألماً واعتدل في جلسته جاثياً على ركبتيه وهو يضع يده على رأسه محاولاً لم شتات وعيه الذي تبعثر بما حدث.

أخذت تنظر إليه، لم يبدُ أمامها وكأنه جرح أو أصيب إلا بشظايا قليلة في ذراعيه سببت له خدوشاً لا تستدعي حدوث كل ذلك النزف، تفاجئ أيضا بحالته حين انتبه لنفسه، بحيرة الدماء التي رقد عليها لطخت سترته وذراعيه ويديه، تأمل ما حوله؛ لكن ذهولها لم يدم طويلا حين أخرستها الصدمة المؤلمة.

الفتى هو من أصيب برأسه إصابة هشمت عظام جمجمته وضرجت الدماء من جوفه، وقد ألقى الانفجار بجسده قريبا من شادي ويده لاتزال ممسكة بكيس أرغفة الخبز التي أرادها لأهله لينقذهم من شبح الجوع.

فاختطفه شبح الموت.

بكاه منتحبا في ألم وهو يقترب منه، رفع رأسه بين يديه وناداه عليه، فوجده قد فارق الحياة تاركاً بصمة دمائه بجسده، صاح في ألم وغضب بأعلى صوته:

-سحقا لكم... سحقا لكم..

وتدفقت دموعه بغزارة، لم تشفع وجودها لأصوات الرصاص الذي لم يتوقف للحظة ولا حتى دوي الانفجارات، بكت مها بحرقة وألم مثله دون أن تعرف السبب الحقيقي لانتحابه، ثم ربتت على كتفه وحثته على النهوض، ترك جثة الفتى ونهض متثاقلا منهكا مما بروحه وجسده، ثم نظر لأرغفة الخبز في يده تمنى لحظتها لو يعرف اسم الفتى أو شيئا عن محل إقامته ليحاول إيصالها لأهله؛ لكن المجال لم يكن متاحاً والشارع قد صار عرضة للمزيد من الهجمات، قفل عائداً معها إلى السيارة ليجدا ضياء وقد انهار جسدها على الأرض من شدة الخوف والألم والإعياء فارتعبا، أسرعا إليها لتجدها مها وقد ارتفعت حرارتها، حملها إلى السيارة ثم انطلقوا يشقون طريق اللانهاية نحو الفرار إلى المجهول مرة أخرى.

رحلة من المعاناة والتشرد والألم تجرع مسافروها مرارتها في قلوبهم وأثقلت بمشاقها أجسادهم، رحلة لن يحس بها أو يدركها إلا أصحابها، ولن يشاطرهم هذا الإحساس إلا قلبٌ رقيق كقلب سحر، ولن يستخف بها إلا قلب متحجر كقلب طارق.

منذ ذلك اليوم، وطارق يعيد حديثه مرة تلو الأخرى عن النازحين مع أصحابه ساخراً شامتاً بهم، لا يروق له هذا إلا في لحظة وجودها بالقاعة معيداً عليها شريط ذكريات الألم التي ربما لن تظل ذكريات؛ بل واقعا لا تزال تعيشه بإصابتها التي شوهت جمال وجهها ووجب عليها التعايش معها، وذات مرة حين كانت بالقاعة مع سحر وحدهما تتناقشان كعادتهما، دخل مع رفاقه وهم يتضاحكون، شعرت بأنه يتحين جوهما الخاص حتى ينتهكه، فأشارت لرفيقتها

التي ففهمت قصدها وحملتا كتبهما وحقيبتهما وهمتا بالمغادرة، لم يفت الأمر عليه، فقال بسخرية لرفاقه:

-ما رأيكم أن نقوم بجولة عصر يوم في حي السلام؟

رد محمود بضيق:

-لِمْ؟ هل تريدينا أن نرى المتشردين ويتعكر صفونا؟

-وهل سيتعكر صفوك الآن يا محمود؟ إنهم كالطفيليات منتشرة في كل مكان، إياك أن تفقد متعتك بسببهم، لا تلقي لهم بالاً وحسب وافعل ما يروق لك.

اخترق الألم والضيق صدرها إلا أنها مضت مسرعة متجاهلة إياهم وخرجت من القاعة، وسمعت سحر وهي تقول لهم بغضب:

- متى ستكفون عن إيذاء الناس هكذا؟

هز طارق كتفيه وقال باستنكار مصطنع:

-إيذاء الناس!! لم نؤذ أحداً يا آنسة.

هزت رأسها وهي تقول في يأس:

-يظهر بأنه لا فائدة من أي حديث معكم لأنكم لا تملكون أي إحساس في قلوبكم.

-لم أفهم، أوضحي يا آنسة.

لم تعقب على كلامه الساخر، ومضت مبتعدة عنه والغضب يلوح في عينيها، وما هي إلا لحظات حتى سمعتا ضحكاته الساخرة مع رفاقه، رغم تعنيف سحر له إلا أن الحال لم يتغير،

فآثرتا الجلوس في المكتبة أو في أي مكان آخر لا تضطران فيه لتحمل حديثه الذي يصدر من لا مبالاته. وبمجرد أن تراه، كانت تستعيد تلك الأحداث فتشرد كل الشرود عن واقعها الآمن لتعيش في ذلك الخيال المخيف لزمن. تمنت لو أن مكانا غير الأرض في وسعها اللجوء إليها بعيداً عن ريشة المتحذلقين حولها راسمين في رؤوسهم ألف لوحة لها... متشردة، غريبة، قبيحة الوجه، تلك الكلمة التي لم تسمعها بأذنيها بل قرأتها في عيون بعضهم النهمة إلى تأليف الأحاديث، أو ربما نظرات الشفقة والتعاطف، وما زاد الطينة بلة هو أن تجد نفسها وعائلتها بمسكن يعود إلى والد ذلك الشاب المتعجرف المغرور طارق.

تمنت لو أنها تستطيع أن تبوح بكلمة لأمها أو تطلب من أخيها الانتقال إلى مكان آخر لا ينتمي لطارق أبداً؛ لكن هذا الأمر صعب، الشكوى لهما ستزيد من ألمها ولا سيما أن شادي بذل جهدا كبيرا لأجل نفقة علاجها من مرضها وإصابتها، ثم بحثه عن عمل حتى وجده بعد عناء ليكون دوامه صباحا ومساء ويستقر وضعهم بعد النزوح بأشهر.

ماذا في وسعها أن تفعل إزاء أذى طارق لها؟

فكرت في نفسها، ليس أمامها إلا أن تصبر لأجلهما.

في ذلك المساء، لاحظت مها شرودها الزائد وهي تجلس بالغرفة وحيدة وعيناها لا ترتفعان عن مذكرة محاضراتها التي أمامها، وبدا أن تفكيرها ليس بالكلمات التي دُونت بها، اقتربت منها وهي تسألها في قلق:

-بنيتي، منذ أيام وأنتِ ساهمة واجمة كثيرة الشرود، هل حدث شيء؟

انتبهت لصوتها فقالت:

-لا شيء يا أمي، الامتحانات على الأبواب وحسب.

فقالت لها في استنكار:

-صحيح أنك في أول سنة لك بالجامعة وفي بيئة جديدة لم تعتاديها؛ لكن لم يسبق لي أن رأيتك في المعلا بهذا الشرود بسبب الامتحانات، هناك أمر آخر، أخبريني إياه.

هزت رأسها وهي تقول في ابتسام:

-لا شيء أمي، ربما لأني لست في مدينتي ولم أستطع الانسجام بعد، فأحس بهذا القلق.

ابتسمت ومسحت على رأسها وهي تقول:

-لا تجعلي أي شيء يشتت تركيزك على الدراسة، إن شاء الله تتحسن أمورنا ونعود لمدينتنا.

واكتفت بهز رأسها، بينما انصرفت مها حين أحست بأنها قد أعادت الطمأنينة لقلبها، أما ضياء فقد بدا الحزن على وجهها، وهي تقول في نفسها:

-صعب عليّ إخبارك يا أمي، أما تكفينا الأحزان حتى نعود لاستعادة ذكريات الماضي القاسي؟ يجب علي تجاهل ذلك المغرور... يجب... ولكن...

صمتت للحظات وهي تقول في حزن:

-كيف يمكنني النسيان؟

في محاولة الهرب الأخيرة، أدرك شادي بأن ضياء لن تحتمل التنقل، وكل ما في جعبته من مال ووقود مآله إلى النفاذ إذا لم يجد طريقة تخرجهم من هذه المعاناة.

اشتد المرض بها بسبب إصابتها ورحلتهم، عاد إلى المجمع الصحي مرة أخرى، هو أقرب مرفق صحي له الآن، لن يكون في مقدوره أخذها إلى المستشفى بالتواهي وهي في هذه الحالة إلا بعد اطمئنان عليها، كان الظلام قد طغى على الشوارع حين وصلوا، ولما دخل بها إلى قسم الطوارئ وجده مكتظا بالجرحى ومرافقيهم والأسرة كلها مشغولة، من لم يجد سريراً وجد الأرض في استقباله فاستلقى عليها اضطرارا، حتى الممرات اكتظ معظمها بهم. أشار إليه أحد الممرضين بإدخالها لغرفة مقابلة بها عدد من الجريحات، تبعه، قامت مها ببسط شرشف على الأرض جلبته معها، بينما مددها عليه وهي تلهث بسبب الحمى وأحياناً يعلو أنين ألمها، ثم فحصها الطبيب في سرعة، وأعطاها بعض المحاليل والمسكنات، ولما فرغ نظر إليه ممتعضاً وهو يقول:

-ألم أطلب إليك الذهاب إلى المستشفى؟

-بلى، ولكن لم أستطع، المدينة محاصرة، كنت أنوي الخروج بها من المحافظة.

عقد حاجبيه وقال في حزم:

-إصابتها تحتاج لأن تظل مكشوفة، ويجب ألا تغطى بعد الآن إلا لفترات قليلة، حرارة الضماد والملابس أثرت على الحرق، إما أن تأخذها إلى المستشفى لترقد هناك أو تستخدم الأدوية التي وصفتها لها وتبقيها في المنزل، أخشى أن تلتهب الجروح، لا أستطيع تقديم شيء هنا أكثر مما قدمت لها، المستلزمات الطبية تكاد تنفذ منا مع تدهور الأوضاع، أصبحنا كمن يقدم الإسعافات الأولية وحسب.

بدا الألم على وجهه ووجه مها وهما يسمعان ذلك، فقال له:

-حسناً سأفعل، شكرا لك.

ثم حملها عائداً بها إلى السيارة، قالت مها في قلق:

-خذنا إلى أي فندق يا ولدي، أرجوك، إني خائفة عليها.

-حاضر.

امتثل لأمرها تحرك بسيارته متجهاً بهم إلى أقرب فندق له حتى تنال بعض الراحة ومن ثم يعاودون رحلتهم، فلمح عن يمين الشارع (فندق المعلا)، الفندق الراقي بالمدينة، تردد في أعماقه كثيراً في الاقتراب منه بسيارته قبل وصوله إليه؛ لكن حالة ضياء كانت تدفعه للدخول والمجازفة علَّ العاملين يتعاونون معه ويقدرون حالتها، فركن سيارته ثم دخل، وبالفعل وجد ما كان يتوقعه، تكلفة الإقامة تصل إلى ثلاثون ألف ريال، لم تكن مناسبة له وفي هذا الوضع الصعب، قال لموظف الاستقبال في رجاء:

-أرجوك، لن ننتظر يوماً كاملاً هنا، بضع ساعات فقط، قدر الوضع الحالي.

عقد الموظف حاجبيه، وقال في ضيق:

-يمكنك الذهاب إلى مكان آخر، لست مجبراً على الإقامة هنا إن لم تستطع دفع المبلغ.

-الأمر ليس بيدي، أنا مضطر فقط، ألا ترى ما نحن فيه؟

-أعرف، ونحن هنا لسنا مركز إيواء ولا مركز للجرحى، افعل ما تراه مناسبا بعيدا عن هنا.

صمت شادي للحظات، إنه مجبر على القبول، حالة أخته لن تحتمل أكثر وستسوء، أخرج محفظته ودفع تكلفة الإقامة ليوم كامل، ثم نقلها إلى غرفة بالدور الثالث ومها تمشي خلفه وهي تحمل حقيبتها، وقد بدا التعب عليها أيضاً، كانت الغرفة واسعة نوعاً ما وبها سريران وحمام ملحق بها وطاولة إلى جانبها كرسيين إلى جانب النافذتين، أرقد ضياء على السرير ثم أسرع يحمل الحقائب عن أمه، وقال لها في إشفاق:

-أمي، حاولي أنت ترتاحي أنتِ أيضا.

تنهدت وقالت في حزن:

-أولاً يجب أن أهتم بأختك وبعدها سأرتاح ، بدل ملابسك المتسخة أيضا واذهب لإحضار الأدوية لها وعد سريعاً، يجب أن تريح جسدك بعض الوقت.

-سأفعل، الآن سأضع ساتراً عند سرير ضياء حتى تتمكني من الاهتمام بها في وجودي.

هزت رأسها مؤيدة، وغادر شادي الغرفة، ليعود ومعه حبل أحضره من سيارته، ثبت أحد طرفيه بمقبض النافذة والآخر بمسمار كان خلف لوحة زينة ملاصقة بالجدار، ثم وضع عليه شرشفاً خفيفاً كان موضوعاً بالسرير الآخر فصار بهذا اقتطاع لجزء من الغرفة و به سرير ضياء فقط مخفيا وراءه جسدها ما عدا رأسها ثم تركهما، ودخل الحمام ليغتسل ويبدل ملابسه التي تلطخت بدماء الفتى، كلما نظر إليها شعر برغبة عارمة في البكاء، كظم أحزانه جاهداً حتى لا يخرج وتراه أمه في حالة مزرية، ثم ارتدى ملابس نظيفة وخرج ليكمل باقي هندامه في المساحة المتاحة له من الغرفة، ولما استعد للمغادرة، وجد مها وقد أزالت الضمادات

الموجودة بوجه ضياء، فظهرت إصابتها أمامه، كان حرقاً شبه عميق رطب وهي تتألم كلما مسحت مها الإصابة منظفة إياها بقطع شاش مبلل ودموعها تنهمر بصمت، أسرع يبتعد من أمامها وخرج من الغرفة، لم يحتمل ما به، انفجر سد دموعه، بكى ملئ عينيه، أسند جبينه إلى جدار الممر والألم يعتصر كل خلايا قلبه لما يجري حوله، فردد في أعماقه :

-لا إِلَه إِلاَّ اللهَّ العظِيمُ الحلِيمُ، لا إِله إِلاَّ اللهَّ رَبُّ العَرْشِ العظِيمِ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللهَّ رَبُّ السمَواتِ، وربُّ الأَرْض، ورَبُّ العرشِ الكريمِ، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت ، الله ربي لا أشرك به شيئاً، اللهم رحمتك... اللهم رحمتك.

انتظر لفترة حتى هدأ، ثم مسح دموعه وأسرع ينزل الدرجات ليخرج من الفندق ويلبي حاجة أهله.

-كثيرون نزحوا عن طريق البحر.

-لا يمكننا ذلك، فالميناء تحت سيطرة التمردين.

-وأنا لا يمكنني ذلك، فزوجتي لا تحتمل ركوب السفن أو القوارب.

-الموارد بدأت تقل على الناس والمعاناة تزداد ولا إغاثة حتى الآن.

-نسأل الله الفرج و النصر على الظالمين.

-اسمعوا هذا الخبر، هناك منفذ بري جهة الدكة سيفتحه المتمردون في الصباح للأسر النازحة.

تناهى إلى سمع شادي أحاديث رجال كانوا جالسين قرب مدخل الفندق حين خرج، ولم يستوقفه إلا قول الرجل الأخير، فأسرع نحوه وهو يقول في لهفة:

-أحقاً ما تقول؟

-أجل، وجئت إلى هنا لأخبر أصدقائي بذلك، ستتحرك عدد من الحافلات من جهة حديقة (الحافون) عند الفجر لتنقل من يرغب بالخروج.

فقال رجل آخر:

-سمعت أيضاً بأنه يتم استقبال نازحين بحضرموت ومنح مساعدات لهم.

-سأذهب إلى المكلا، أعتقد بأنه أنسب مكان، لقد أخبرني أحد معارفي عن المعاملة الطيبة التي يحظون بها هناك.

امتزجت مشاعره بين الفرح والألم وربما الغضب في تلك اللحظة، أطل شعاع أمل أمامه للخروج من المحافظة والنجاة بأهله من نيران الحرب، وما أضرم نيران الألم والغضب بقلبه هو من كان سبباً في نزوحه عن مدينته وإشعال الحرب هو من يسمح له بالمغادرة، كان من الممكن أن يستمر مع رضوان ورفاقه المقاومين ليدافع عن أرضه حتى النهاية؛ لكن لا عائل لأمه وأخته سواه.

فتقَّت الحرب جراحات كثيرة بقلبه ليسكنه الوجع، وضع يده على صدره، وربط على جراحه بحزم، وصعد سيارته وانطلق غرباً عبر الشارع الرئيسي باتجاه محطة الوقود ليملأ خزان سيارته استعداداً للرحلة الجديدة خارج المحافظة.